شخصيات قرآنية

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

٢١١,٨١
مام مأمون فريز جرار
شخصيات قرآنية/ مأمــون فريز جرار .ـ عمـان: دار البشير، ١٩٩٢
(٩٦) ص
ر.أ (١٩٩٢/٥/٣٢٠)
١ـ القرآن الكريم ـ قصص الأنبياء أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان ـ الأردن

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

obeikandl.com

شخصيات قرآنية

د. مأمون فريز جرار

دار البشير

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

مقدمة

كان القرآن وما يزال معيناً لا ينضب. . لا يشبع منه العلماء ولا يبلى على كثرة الرد. . تتدبره العقول فتخرج بزاد تقدمه إلى القراء. . كل عقل يأخذ على قدره. . كما يفيض كل واد بقدره. وقصص القرآن وشخصياته من الموضوعات المحببة إلى النفوس، لما فيها من العظة والقدوة والمتعة.

وها أنا أتقدم من بعض شخصيات القرآن على استحياء. . أنظر في ملامحها. . وأحاول رسم قسماتها. . وأستكنه بعض أعماقها. . . أقدم هذا في أسلوب أرجو أن يكون ممتعاً مؤثراً. . فإن اقشعّر جلد. . أو تفتّح قلب. . أو استنار عقل. . ببعض ما كتبت. . . فذلك ما أرجو ثوابه.

ولئن نلنا ببعض ما نكتب شيئاً من عرض الدنيا. . فما أسرع زواله، ولكنني أرجو من الله أن يجعل ما يجري على قلمي نوراً وذخراً أجده يوم ألقاه. . ويبقى من بعد علماً ينتفع به. . فيظل أجري جارياً. . . ما بقي لأثري

obeikandl.com

من بعدي وجود. . فما غبطت أحداً على دنيا يصيبها. . من مال يجمعه. . أو مركز يتبوّؤه. وإنما أغبط مِن أهل العلم مَن حسنت نيته. . . وبقي له في الناس كتب يُنتفع بها.

فاللهم أصلح نياتنا. . وذرياتنا. . وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

والحمد لله رب العالمين.

مأمون جرار

obeikandl.com

إبراهيم وأبوه

عجيب أمر البشر، هذا أب مهتد وولد ضال. وهذا ولد مؤمن ووالد كافر!!

ها نحن نقف أمام إبراهيم، خليل الله، عليه الصلاة والسلام، ينظر من حوله فيرى أصناماً منصوبة، وتماثيل منحوتة، يعكف عليها قومه، ومع هؤلاء العاكفين أبوه.

يقترب من الأصنام.. يحسها بيده.. فلا تبدي حراكاً.. يناديها... يصرخ في آذانها.. فلا تبدو عليها آثار السمع.. يسألها فلا تجيب...

عجيب أمر هؤلاء القوم!

ها هو ينطلق فيهم متسائلاً: وأول ما يوجه السؤال لأبيه: **﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾**؟!

﴿ماذا تعبدون، أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾.

﴿ما تعبدون؟

قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون﴾.

obeikandl.com

وانتفض أبــوه وقــومــه يدافعــون عن آلهتهم . . يحذرونه . . ويخوفونه عاقبة التطاول عليها .

ولما رأى إعراض قومه عن دعوته . . توجه إلى أقرب الناس إليه نسباً . . أراد أن يستخلصه من حمأة الكفر . . . وينقذه من النار.

﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ .

لم يجـد من أبيه أذنـاً صاغية . . ولكنه أبوه! فنراه يحتال بكل وسيلة لهدايته يتودد إليه . . ويتحبب إلى قلبه .

يأتيه من باب العقل فيكشف عورة معبوده . ويأتيه من جانب القلب فيضـع يده على دفء الحنان الذي يعمر قلبه ، والمودة التي تفيض بها جوانحه : ﴿**يا أبت لم تعبد مالا يسمـع ولا يبصـر ولا يغني عنـك شيئاً**﴾ من يعبد الإنسان؟ إنه يعبد من يسمعه ويستجيب له . يعبد الذي يملك السمع والأبصار . . القوي القادر . . الغني القاهر، الذي يملك النفع والضر . .

أمـا هذه الجمـادات الصماء البكماء . . . التي لا تملك أن تدافع عن نفسها . . فلا أراها تستحق الالتفات فضلاً عن العبادة .

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾.

إن موقع الأب في التكوين الأسري في العادة أعلى من موقع الولد، ولذلك لا يطيق الوالد أن يجد استعلاء في ابنه، ولا يحسن ذلك بالولد، وقد أدرك إبراهيم خليل الله هذا الجانب النفسي، فلم ينسب ما عنده من العلم والهدى إلى نفسه، بل إنه تلقاه من ربه.. فلا حرج في أن يتبعه أبوه فهما يتبعان ما جاء من عند الله الذي يهديهما الصراط السوي.

ويُقبِّح إبراهيم لوالده الاستمرار في عبادة الأصنام التي هي عبادة للشيطان فالشيطان هو داعية الضلال، وهو الذي يسعى جهده ليصرف الناس عن عبادة ربهم بعبادة ما سواه، وأي قبح أعظم من رمز الشر في الوجود الذي شرع للناس معصية ربهم.

وبلهفة الولد الشفوق، والداعية المحب.. تنطلق الكلمات من فم إبراهيم، وهي تفيض بالرأفة والرقة والخوف على مصير الأب إن استمر في طريق الضلال.

﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ إنه تحذير من عبادة الشيطان

وولايته، لأنه عصي للرحمن وكل من سلك دربه فهو من الهالكين وإبراهيم يحب أباه، ويشفق عليه من الهلاك، ومع أن إبراهيم قد دار من حول قلب أبيه وحاول دخوله، وتوجه إلى عقله ورجا أن يفتحه، إلا أن ذلك الأب كان ذا عقل مطموس، وقلب مطبوع عليه، فلم تتحرك في قلبه عاطفة، ولم يبرق أمام عينيه نور. . فكأن هذه الأصنام التي كان ينحتها ويتخذها. . . قد أخذت مجامع قلبه، وأغلقت منافذ عقله، وملكت عليه كيانه فلم يصغ إلى الداعي الذي جاءه بالهدى والنور، في ثوب الحب والاشفاق.

وانطلق يهدد ابنه وينذره. . ويدافع عن آلهته. . ولا يكتفي بالإعراض عن الهدى، بل يحاول إطفاء شعلته في قلب إبراهيم. . ويدعوه إلى البعد عنه كي لا يراه:

﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك، واهجرني ملياً﴾.

عجباً لهذا الأب. . ابنه يتودد إليه بكل وسيلة. . ويلين له في القول. . وهو يرد عليه هذا الرد الجافي القاسي؟

ولا يفقد إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه اتزانه في

مواجهة هذا الموقف الغريب.. بل يتابع خطاب والده على نفس النغمة الحانية الودود:

﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾. لئن أغلظت لي القول فلا أملك إلا أن أرد عليك السلام!

فأنت الوالد الذي أوصى الله به إحساناً.. ولئن لم أفلح في الوصول إلى قلبك.. فلن أيأس.. فسألجأ إلى رب القلوب الذي بيده مفاتيحه.. واستغفر لك.. فعسى أن ينزل عليك نفحة من هدايته!

واعتزل إبراهيم أباه وقومه.. ومضى يستغفر لأبيه الضال حتى تبين له أنه عدو الله.. لن يدخل نور الإيمان قلبه.. عندها وقف من أبيه وقومه موقف المؤمن من أعداء الله.. موقف المفاصلة التي لا تعرف الهوادة.. والبراءة مما هم فيه من الشرك والضلال.

﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾

﴿إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾.

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾.

وهكذا يبت الإيمان الصلة . . ويضع الوالد في جانب آخر . . فما دام عدواً لله فقد اختار سبيل القطيعة لما أمر الله به أن يوصل . وبقي إبراهيم ومن معه من المؤمنين أسوة لمن بعدهم ممن يسير في درب الإيمان في الدعوة الصريحة إلى الحق، والمجاهرة بنبذ الباطل وقطع الروابط الاجتماعية عند تعارضها مع الإيمان .

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك، وما أملك لك من الله من شيء﴾.

لقمان وابنــــه

نحن أمـام رجـل آتـاه الله الحكمـة ولقنه الشكر، يخـاطب ولـده من موقـع الأبـوة الحانية الحريصة على مصيره في دنياه وآخرته، ونجده يستجمع خلاصة حكمته ليقدمها عظة له.

وفي عرض القرآن الكريم لصورة لقمان الحكيم وهو يقف موقف الـواعظ من ولـده بيان للطريق الـذي على الـوالـد أن يسلكـه مع ولـده، كيف يربيه؟.. ما هي المبادىء والقيم التي يغرسها في قلبه، وينميها في سلوكه؟.

وأول ما يبدأ به لقمان الحكيم نهي ولده عن الشرك بالله.. وفي هذا النهي تتجلى حكمـة لقمان أنصع ما تكون.. ﴿**يا بني لا تشرك بالله**﴾.. وننظر في آيات الله فنجد أن الشرك أعظم الذنوب.. فإذا وجد لم ينفع معه عمل صالح وإذا فقد لم تضر بعده معصية مع رحمة الله وغفرانه ﴿**إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾.

obeikandl.com

فإذا تخلص الولـد من هذا الظلم العظيم الذي يملأ القلب ظلاماً، ويجعل بين العبد وخالقه حجاباً كثيفاً، فإن الطريق أمامه إلى رحمة الله ورضوانه ستكون مفتوحة لا يغلقها شيء.

ونجد ـ ونحن أمام لقمان يعظ ابنه ـ وصية من الله تعتـرض سياق تلك المـوعـظة لتلقي بضوء على طبيعة العـلاقة بين الولد والوالدين، لتقول لكل ولد يمر بهذه الموعظة: عليك أن لا تنسى حق والديك، فإذا كان من حق الـولد على الوالد أن يحسن تربيته ويبيّن له سبيل الحق، فللوالدين عليه حقوق، وإن كانا على غير ملّـة الهدى، فأمه حملته وهناً على وهن، وذاقت الآلام بين حمل ورضاع في عامين لا تعادلهما الأعوام التي يقضيها في محاولة البر وسداد الدين.

ولكن لبـر الوالدين حداً لا يحق للإنسان تجاوزه، لهما حق الصحبة في هذه الدنيا ولهما حق الطاعة، ولكن في غير معصية الله، فإن كان الأمر بالمعصية، فلا سمع ولا طاعة، مع الحرص على حسن الصحبة والمعروف في المعاملة.

بعد هذا الاعتراض الذي يكشف حق الوالدين على

الولد نتابع الاستماع إلى الحكمة تنثال من فم لقمان الحكيم.

وبعد أن بيّن لابنه حقيقة التوحيد، ودعاه إلى التخلي عن الشرك، لأنه لا إله إلا الله، لفت نظره إلى صفة من صفات الله عزّ وجلّ، صفة تثير في النفس مشاعر الرقابة وتوقظها على حقيقة تغفل عنها، تلك الصفة هي علم الله عز وجل، ونجد لقمان الحكيم يستخدم في الدلالة على علم الله عز وجل أسلوباً تصويرياً يناسب عقلية الولد الذي قد يتبادر إلى ذهنه أنه إذا استتر عن عيون الخلق فقد أمن أن يراه الخالق.

ونجد لقمان الحكيم يضرب لابنه مثلاً بأصغر ما كان متصوراً له، حبة خردل، مخبوءة في صخرة صماء أو مختفية في آفاق السماء التي تبدو للعين هائلة الاتساع، بعيدة الآماد تكل العيون من البحث في جنباتها، أو تكون هذه الحبة مستترة في تراب الأرض في فج من فجاجها، أو سفح من جبالها، تلك الحبة أينما تكن يعلم الله مكانها، وليس ذلك فحسب، بل يأتي بها، ذلك شأن مثقال حبة من خردل.. فما بالك بعمل يقوم به إنسان؟!

فاعلم يا بني ذلك.. واعلم أن الله لطيف خبير... فهو لا يخفى عليه خاف ولا يبعد عن علمه شيء مهما

لطف وصغر واستتر!

وبعد أن ربط لقمان الحكيم ابنه بخالقه، ودَلّه على بعض صفاته.. مهّد السبيل في قلبه لتلقي التكاليف التي يعرف لمن يتوجه بها..

﴿يا بني أقم الصلاة﴾.

والأمر بإقامة الصلاة ذو مغزى.. فالصلاة لحظة انقطاع لله.. انقطاع عن الدنيا بما فيها من أهل ومال وولد.. ولحظة اتصال بعالِم الغيب والشهادة وتجرد عن أهواء النفس وحظوظها وشهواتها.. واستعداد للقاء الله بمفارقة الروح للجسد... فمن أقامها فقد سلك سبيل الهدى.. فهو إما على طاعة دائمة أو على طاعة تشوبها معصية يتطهر منها بالصلاة... فلا خوف عليه لأنه على صلة بالله.

ويطلب لقمان من ابنه أن لا يكتفي بصلاح نفسه، فالمسلم ليس أنانياً.. إنه يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه، وأي خير أعظم من أن تدل إنساناً على الهدى؟ والمسلم مجاهد في سبيل ربه، لا يصبر على رؤية المنكر يعم، والشر ينتشر، وهو ساكن لا يتحرك، إن أهل الضلال يتحركون لنشر ضلالهم، فأي الفريقين أحق

بالحركة والنشاط؟ إن لقمان يدعو ابنه إلى أن يكون مؤمناً إيجابياً حيّاً، فقال له: ﴿**وأمر بالمعروف وانه عن المنكر**﴾ وهل الحياة إلا صراع بين المعروف والمنكر والخير والشر و الهدى والضلال؟ وهل الناس إلا أحد فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؟ وهل جاء رسل الله إلا ليأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر ابتداء من المنكر الأكبر: الشرك بالله، وانتهاء بأصغر المنكرات؟ ويزود لقمان ابنه منذ البداية بالتحصين النفسي، فيبين له أن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يسبب له الأذى في نفسه أو ماله، أو منزلته، ولذلك فإن عليه أن يعتصم بالصبر، ويوطن نفسه عليه حتى لا يفاجأ به.

لقدزود لقمان ابنه بأسس العقيدة السليمة، والعبادة القويمة، والحركة في سبيل نشر المعروف ومطاردة المنكر، ويزوده إلى جانب ذلك بالسلوك المستقيم البعيد عن الخصال التي يكرهها الله عز وجل، ويبغضها عباده.

﴿**ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾.

إنه ينهاه عن التكبر عن خلق الله.. والتكبر خلق

نفسي يتجلى في استعلاء الرأس وإمالة الخد، في شموخ كاذب، وكبرياء مصطنع، وإلى جانب هذا ينهاه عن الإحساس بالذات إحساساً يستخفه.. فيمشي في الأرض مرحاً، ويكاد الإنسان يحس بحقيقة هذا المرح عندما يحصل خيراً أو يحقق نجاحاً، ويريد أن يصل إلى من يسره سماعه، فتراه يمرح في مشيته فيكاد يطير، ذلك الإحساس بالذات الذي ينسب إليه الخير، ويُنسي الإنسان ربه الذي أنعم عليه به، وهذا خلق ينبغي أن يتخلى عنه المسلم لأن ﴿**الله لا يحب كل مختال فخور**﴾.

وبعد أن دخل لقمان الحكيم إلى قلب ابنه، ودله على أخطر ما يمكن أن يتسلل إليه من أمراض، توجه إلى ظاهره، ليكون نظيف الظاهر والباطن، ﴿واقصد في مشيك﴾ إن ظاهر الإنسان يدل على باطنه، ويمكنك إذا تتبعت سلوك إنسان في سيره وحديثه أن تتعرف على حقيقة نفسه، وطوية سريرته، فمن صلحت عقيدته، وحسنت عبادته، وتطهر قلبه، لا ينبغي أن يعكر ذاك الصفاء بمشية توحي بالكسل، أو تدل على الثقل، ولا بمشية تكشف عن خفة ورعونة، وتذهب بالهيبة، إنها المشية الطبيعية التي لا تلفت النظر ولا تثير التساؤل.

﴿**واغضض من صوتك**﴾ وصوت الإنسان رسوله إلى الناس، جعله الله عز وجل للبلاغ والاتصال، فإن زاد ارتفاعه عن الحد الذي يحصل به المقصود انقلب مصدر ازعاج، وليس الازعاج من شأن الإنسان، بل هو من شأن الحمار يزعج من يستمع إليه.

ونقف بعد هذا لنسأل: لم أورد الله عز وجل هذه الصورة للأب الحكيم يزوّد ابنه بأغلى زاد؟ أليس في هذا بيان لمنهج التربية الإسلامية للطفل، تربية تقوم على العقيدة المتمثلة بالإيمان بالله والإعراض عما سواه، والتعرف على أسمائه وصفاته، ليحس الإنسان بالصلة الحقيقية به، ثم في العبادة التي يتطهر بها من خطاياه، وترفع بها درجاته عند مولاه، ثم في حراسة الفضيلة ومحاربة الرذيلة والصبر على تكاليف الدعوة، ثم في الخلق الحسن والسلوك القويم.

إنها وصية ومنهاج، حري بكل أب أو مرب أن يقف أمامها طويلاً ويستلهم منها أسلوب التربية السليمة.

obeikandl.com

ذو القرنين

قص علينــا القــرآن الكــريم أنبـاء عدد كبير من الشخصيات، ويلفت النـظر فيها هذا التنوع الذي كاد يشمل أصناف البشر في شتى مواقعهم الاجتماعية، ففيها آباء وأبناء، وأزواج وزوجات، وملوك ووزراء، ومؤمنون وكفرة، وأنبياء ومستضعفون، وملأ عتاة مستكبرون.

وفي كل شخصية من هذه الشخصيات ملامح ينبغي أن تُستجلى لتتم الفـائدة من الوقوف عليها، فلم يقص القرآن الكريم علينا أخبارها لتكون ألهية نقضي بها بعض الوقت، بل لتكو ن آيات تتلى يتدبرها أولو الألباب.

وبين يدينا قصة ذي القرنين، وقد جاء ذكرها جواباً عـن سؤال. . وقد كان من مقاصد السائلين أن يبلو ا قدرة النبي ﷺ على العلم، فجاءه الجواب من العليم الخبير. جاءه على صورة فيها تجسيد لصورة الفاتح المسلم الذي يملأ الأرض هداية وعدلاً. . .

ولعل السائلين قد أرادوا الجواب على نمط ما ألفوا من أخبار الأقدمين، يحدد لهم الزمان والمكان، وتأتيهم

تفـاصيل ما كان، وذلك ما لـم يجدوه فيما أنزل الله من قرآن! ومـطلع القصـة يقـول: ﴿**قـل سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾. من هو ذو القرنين؟ لقد ذكرت صفته ولم يذكر اسمه! ولم يُذكـر لنا إن كان سليل أسرة حاكمة أم هو طارىء في الملك. فليس ذلك بمهمّ! المهم في هذا الذكر أن يكون مصباحاً يكشف عن الحق في هذه الحياة للسالكين. فمن آتاه الله منهم الملك فلينظر في سيرة هذا العبد الصالح الذي مكّن الله له في الأرض، وما يكون لأحـد ملك في الأرض إلا بتمكين من الله ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء**﴾.

لا نُبصِرُ هذا الرجل الصالح في سياق القصة القرآنية إلا وهو مرتحل! لا نراه في حاشيته وعلى عرشه كما في قصة بلقيس! أو بين جنده وفي عاصمة ملكه كما في قصة سليمان! وفي قصة فرعون!

إننا نبصره في مغرب الشمس... ثم في مطلعها.. ثم بين السدين! أين مغرب الشمس الذي وصله؟ وأين مشرقها الذي فتحه؟ وأين السدّ الذي أقامه بين السدين؟ ليس هذا هو المقصود! لا تنظر أين! ولكن انظر كيف سار هذا الفاتح في الأرض.

﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة، ووجد عندها قوماً، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً* قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا* وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرا﴾، ماذا يريد هذا الفاتح من سيره في الأرض؟ إنه يقيم شرع الله، ويتلقى أوامره **﴿قلنا ياذا القرنين﴾**.. ثم نراه يقيم ميزان العدل فللمحسن منه الحسنى، وللمسيء العذاب العاجل، ثم عند ربه له عذاب أليم! فلم يكن فاتحاً ظالماً بل مقيماً للعدل.

وإذا كان ذو القرنين لا يظلم من تلقاء نفسه فإنه ينصف المظلوم من ظالمه، فإذا لم يكن قادراً على قهر الظالم جعل بينه وبين المظلوم حاجزاً، وذلك ما كان من أمره مع ذلك الشعب الذي وجده بين السدين.

﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً* قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً* قال ما مكنّي فيه ربي خير فأعينوني بقوّة أجعل بينكم وبينهم ردماً..﴾ إن مما يلفت النظر في شخصية هذا الإمام الصالح أنه كان

obeikandl.com

نصيراً للمظلومين، فقد رآه ذلك الشعب فاتحاً، وبَلا من أمره ما جعله يطمع في نصرته. ويبدو أنه لم يكن لذي القرنين طاقة بيأجوج ومأجوج وإلّا لجاس خلال ديارهم، وردعهم عن إفسادهم! وإذ كان ذلك من شأنه، فإنه قد استجاب لطلب الشعب المظلوم المغلوب على أمره أن يجعل بينه وبين يأجوج ومأجوج سداً يقيه شرهم!

ولم يكن ذو القرنين جابياً للمال يسعى إلى اكتناز ثروات الشعوب واستعباد أهلها.. فلم يقبل ما عرضه عليه ذلك الشعب البدائي من خرج يُجمع له! وكأنهم يريدون بذلك تقديم الولاء له من جهة، وتخفيف عبء المال عنه من جهة أخرى! لقد تطوع بذلك مما آتاه الله...! وإننا نجد من حكمة هذا الفاتح العادل أنه وإن استغنى عن مالهم فقد سعى إلى استثمار طاقاتهم الجسدية في بناء السد ﴿فأعينوني بقوة﴾.. لجلب قطع الحديد والنحاس والفحم.. وغير ذلك مما استخدمه في بناء السد!

ونجد مع الملك العريض، والعدل القائم، علماً وخبرة يتجليان في خطة هذه الردم الذي أقامه.. في تقوية الحديد بالنحاس، ليكون حاجزاً لا تناله عاديات الأيام.

ولا ينسى هذا الفاتح في كل لحظة من حياته أن ما به من نعمة فمن الله، فهو يقيم أمر الله في المحسن والمسيء، وهو ينظر إلى المال الذي في يديه فيرد فضل وجوده إلى ربه ﴿**ما مكنّي فيه ربي خير**﴾، ثم ها هو يرى السد وقد قام، والأمن وقد خيّم على هذا الشعب المظلوم، فلا يأخذه الزهو، ولا يناله الغرور بما صنع، بل يقول: ﴿**هذا رحمة من ربي**﴾

وإذا كان بعض من يؤتيه الله الملك تصيبه غشاوة تحجب عنه حقيقة الحياة فيظن أنه من الخالدين، وأن ما بيده لن يبيد أبداً.. فإن ذا القرنين يقول وهو ينظر إلى الردم وقوّته: ﴿**فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً**﴾.

وكأنما كان ذو القرنين مأموراً من ربه فيما فعل، فهناك وعد مرتبط بهذا السد لا بدّ أن يجيء يوم يصبح فيه هذا السد المعدني دكاً.. ويكون من شأن يأجوج ومأجوج في الأرض ما هو موعود مكتوب، مما جاء تفصيله في حديث الرسول ﷺ.

إن سيرة ذي القرنين تعطي «النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبّر ولا يتكبّر، ولا

obeikandi.com

يطغى ولا يتبطّر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهله في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبّان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إليه»[١].

(١) في ظلال القرآن/ ٢٢٩٣.

obeikandl.com

أم موسىٰ

إذا كانت أمم الأرض تفخر بنسائها: ملكات وأميرات وحسان، وشاعرات وفنّانات.. فإن الأمة الإسلامية تفخر بطراز آخر... نساءٍ تميّزن بالإيمان الذي بلغ درجة استحق بها أن يُذكر في كتاب الله عزّ وجل.. وأن يُتلى في المحاريب قروناً بعد قرون.. أو أن يقصّ خبره رسول الله ﷺ.

سارة وهاجر زوجتا إبراهيم عليه الصلاة والسلام... أم موسى.. ومريم ابنة عمران.. وأمّها.. وملكة سبأ.. ثم بعد ذلك نساء الرعيل الأول من أمة محمد ﷺ.. خديجة.. وفاطمة.. وعائشة وأسماء.. وحفصة وزينب.. ونجوم هدى كثيرة.. للسالكات درب الحق.

وأم موسى عليهما السلام.. نموذج من نماذج الإيمان بالله والتسليم له.. ولدت ابنها في جو من الرعب أشاعه فرعون وجنوده.. يقتّلون الأبناء.. ويستحيون النساء..

obeikandi.com

جاء ابنها ذكراً. . وجاء معه الخوف. . ولعلها تمنته أن يكون أنثى لتسلم من القلق والحزن. . . ويسلم هو من الموت. . ولكن أي خوف على من سيكون رسولاً لله؟

أي حقائق هي من باب الأعاجيب؟

ولا عجب من أمر الله. . بل مما لم يألفه الناس فيما اعتادوه!!

كيف تكتب النجاة لهذا الطفل الذي سيكون نبياً؟

ويأتي الوحي ليخرج الأم من قلقها وحيرتها!

هل جاءها نفثاً في الرُوع؟ أم رؤيا في المنام؟

أم سمعت نداءً يوجهها؟

المهم أن الفرج قد جاء. . وأن الحيرة قد تراجعت سُحُبها!!

ولنتتبع مع أم موسى طريق الفرَج!!

﴿و أوحينا إلى أم موسى أن أرضيعه﴾

إنه وحي متّسق مع الفطرة. . فكل أم ترضع ولدها،

obeikandi.com

وتقبل على ذلك برضى وسعادة.. ولكن ماذا بعد الرضاع؟

﴿**فإذا خفت عليه فألقيه في اليم**﴾!!

إنهـا خائفة .. بل بلغ الخوف منها درجة أخذت عليها مجامع نفسها.. فجنود فرعون يترقبون أولاد بني إسـرائيل ليُجهـزوا عليهم.. وتحسُّهم في كل مكـان يسترقون الأخبار.. إنها خائفة.. فماذا تفعل؟!

﴿**ألقيه في اليمّ!!**﴾

هل جحظت عينا أم موسى وهي تتلقى هذا الأمر؟!

هل تسارعت نبضات قلبها.. أم شهقَت شهقة كاد نَفَسُها ينقطع منها؟!

ولكن الـوحي يتـابع الأمـر.. ليثبّت في القلب المضطرب الطمأنينة.. ويلقي على النّفس الموزّعة.. السكينـة.. ﴿**ولا تخـافي ولا تحـزني إنّـا رادّوه إليـك وجاعلوه من المرسلين**﴾.

لا بدّ أن أم موسى كانت على يقين من مصدر هذا الـوحي... إنّـه ليس حديث نفس.. ولا وسـوسـة شيطان.. ولا تخيّلات فزَع!!

أي إيمـان يعمـر قلبك يا أم موسى وأنت ترضعين

ولدك وتتبعين خطوات الوحي . .

﴿اقذفيه في التابوت

. . فاقذفيه في اليم

. . فليلقه اليم بالساحل

. . يأخذه عدوّ لي وعدوّ له﴾

سلسلة من المخاطر تلقي ولدها فيها بثقة وطمأنينة . . ولكنّها تعلم أن المسار محدّد . . والخط مرسوم . . فلن يُغرقه الماء . . ولن يجرفه التيّار . . سيلقيه اليم بالساحل . . وأيّ ساحل؟!

﴿يأخذه عدوّ لي وعدوّ له﴾

أي مشاعر اضطرمت في نفسك يا أمّ موسى وأنت تجهّزين ولدك ليقع بين يدي أعدائه؟!

إنك بشر . . ولكن نور الإيمان بدّد ظلمات الضعف البشري . . إنك مؤمنة . . ولكنّك أم . . تثقين بوعد الله . . ولكن تريدين لقلبك أن يهدأ . . وأن يعرف مسار التابوت الذي يحمل قطعة منك . .

﴿وقالت لأخته قُصّيه﴾

وهذه أخت حكيمة مؤمنة . . لم يُخرجها فزعٌ عن

طورها . . ولم يغلبها خوف على أخيها . .

﴿فبصُرت به عن جنُب وهم لا يشعرون﴾

إنها عناية الله التي شملت الأم والرضيع والبنت فربطت على قلب الأم ولم تُبدِ أنّ موسى ابنها . . . وألقت السكينة على قلب الأخت . . وهي ترى أخاها في صندوق على وجه الماء . . ثم ترى جند فرعون يُهرعون إليه . . وتسمع النداء على المراضع ليجرّبن حظهن في أن يرضعن طفلاً كفله فرعون . .

كيف نجا هذا الطفل من فرعون وجنده؟
أي حماية أُنزلت عليه؟

﴿وألقيت عليك محبة منّي . . ولتصنع على عيني﴾

ما أعجب أمرك يا أم موسى ! بالأمس كنت خائفة على ابنك . . فجاءك الوحي الإلهي يرسم لك طريق نجاته . . وها هو ابنك في يد فرعون . .

ويكاد الضعف البشري يغلبك . . .
تكاد الأمومة تفسد الخطة . . وأنّى لها ذلك؟ !

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾

وتأتيك ابنتك بالبشارة . . أدركي موسى . . إنه يصيح من الجـوع . . . ! أبى المراضـع كلّهن . . فهل لك أن ترضعيه في قصر فرعون هو آمن وأنت في احترام وتقدير؟!

أي قرّة عين كنت فيهـا يا أم موسى وأنت يسبقـك قلبـك إلى رضيعـك الذي يصيح جوعاً . . ويرفض أن يرضع من غير أمّه؟!

أي يقـين ارتقيت إليه وأنت ترين تحقيق وعــد الله لك؟! الــوعـد القـريب . . بردّ موسى إليك . . ليتحقق الوعد البعيد بأن يكون رسولاً . . . ؟!

* * *

ها نحن بعد قرون طويلة . . نقرأ قصتك في كتاب الله . . ونقف أمامها طويلاً . . فنراك شامخة بنور اليقين لا يحجبك عنا تطاول الزمان . . .

ويظل اسمك باقياً في الناس ما بقي لكتاب الله تالٍ وتظلين قدوة في الإيمان . . والتسليم . . واليقين . .

مريم بنت عمران

«كمل من الرجال كثير، ولم تكمل من النساء إلّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد»

«حديث شريف»

الخلق كلهم عباد الله، وهو ربهم، هو يصطفي من عباده من يشاء ويجتبي من يريد بفضل منه ورحمة.

اصطفى الأنبياء..
واجتبى الصديقين...
واتخذ الشهداء...
وهدى الصالحين..

نحن في بيت كريم من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الأب إمام بني إسرائيل في صلاتهم... وامرأته تشتهي الولد، ويحن قلبها إلى الذرية، فتتوجه إلى ربها الذي يعطي ويمنع، وتدعوه.. فيستجيب لدعائها.. ويكون الحمل.. فترى هذه المرأة الصالحة

أن واجب الشكر لربها يقتضي أن تجعل حملها منذوراً لبيت الله المقدس (المسجد الأقصى) وكانت ترجو أن يكون ذكراً . .

فلما وضعت حملها كان أنثى ! وليكن، فلا بد من الوفاء بالنذر . .

في هذا الجو الكريم الطاهر . . بيت الدين والإيمان، وفي ظل أنوار المحراب . . نشأت مريم بنت عمران .

كانت دعوة أمها المستجابة . . وحفظت من الشيطان الرجيم بدعوة أخرى ورعاها الله عز وجل بالكرامات التي لفتت إليها الأنظار . . فكان زوج أختها - زكريا عليه السلام - يرى من شأنها عجباً . . ﴿**كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ وكانت نجية الملائكة . . تناديها وتهديها الصراط المستقيم . . . وتبين لها المكانة التي لها عند ربها . . .

﴿**وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي**

لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [٤٣- آل عمران].

ولما تم إعدادها للمرحلة الحاسمة.. وصارت في مستوى تستطيع فيه احتمال ما لا يطيق غيرها من النساء.. جاءها أمر الله الذي صارت به وابنها آية للعالمين... دُفعت إلى الاختلاء عن قومها.. فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً.. وصارت إلى مكان لا يرونها فيه. لا بد أن يتم أمر الله.. وإذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب... ألم يحبب الله الخلاء لنبيه محمد ﷺ.. لتشرق أنوار الوحي على قلبه.. وتشرق أنوار النبوة من قلبه على العالمين...؟

وجاء مريمَ جبريلُ في صورة بشر...

لماذا لم يأتها في صورته الملكية.. وجاءها في صورة بشر سوي؟ أليس في هذا إشارة إلى ما في الدنيا من الأسباب؟

لقد كان المسيح بكلمة «كن».. ولكن هذه الكلمة اتخذت إلى مريم سبيلاً عن طريق جبريل... فبنفخة منه وجد المسيح جنيناً في رحم مريم. أي نفس تحملها مريم بين جنبيها؟

ملك في صورة بشري سوي. . يخبرها بأنها ستصبح أماً بلا زوج! ومن ذا الذي يصدقها في هذا؟ وما الذي سيحمي عرضها من ألسنة بني إسرائيل الحداد؟

تعجب من الأمر أول وهلة! ثم تثوب إلى رشدها: ﴿**كذلك يخلق الله ما يشاء**﴾.

أولم تري يا مريم من العجائب ما كان ممهداً لهذه الساعة؟ . . . ألم تكن تأتيك فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف؟

الأسباب لا تتصرف بذاتها. . بل الله هو الذي يصرفها. . ويخرقها إن شاء!

وتمر الأشهر. . ويظهر الحمل. . وتلغط الألسنة. . وتمتد أصابع الاتهام!

ولكن المحنة تبلغ مداها بالوضع. . وتضيق الدنيا بمريم البتول. . وتصك سمعها أقاويل بني إسرائيل. . التي تتوقع سماعها:

ـ من أين هذا الصبي يا مريم؟

ـ أبتول وبغي؟!

ـ أبنت عمران يكون منها هذا؟!

obeikandl.com

فتهتف بلسان الانثى :

﴿**يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾ وتتجلى لها كرامات ربها . .

نبع من الماء ونخلة تُهزُّ فتساقط الرطب الجني في غير أوانه . . رعاية تامة . . فهي في حال وضع . . لا بد لها من أكل وشرب . .

﴿**فكلي واشربي وقري عيناً**﴾

ويلقنها الملك ما تفعله في مواجهة قومها . . الصمت لتكون المعجزة القاطعة للألسنة الطويلة . . فينطق الصبي في المهد . . ليكون آية لله في عباده!

ولد من غير أب . . . !!

أولم يخلق الله آدم من غير أب ولا أم؟! ونطق عيسى . . وقرَّت عين مريم . . . وتجلت لها آيات الله في نفسها وفي ابنها . .

ومرت القرون . . . واختلف الناس في مريم وابنها . . وجاء القرآن الكريم ليقص من أمرها القصص الحق . . وليكشف النبي ﷺ عن مكانة مريم في نساء العالمين . . فيقول :

obeikandi.com

«حسبـك من نسـاء العـالمين مريم بنت عمـران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»(٢) وليقرأ المؤمنون في كلام ربهم. . مثلاً يضرب لهم في امرأة فرعون وفي مريم:

﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنـا وصدقت بكلمات ربها ورسله، وكانت من القـانتين﴾ فسـلام على مريم في الصديقين. . وسلام على ابنهـا عيسى في أنبياء الله المـرسلين.

---

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٥٧٨.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٣١٤٣.

obeikandl.com

امـرأة فرعـون

إن التأمل في الشخصيات التي ذكرها القرآن الكريم يكشف لنا عن أعاجيب في حياة البشر، أعاجيب تدهش العقل وتنبهه إلى أن الأمور لا تجري دائماً وفق ما يتوقعه . . .

إن العقـل يتـوقـع أن يكـون نتـاج البيئة الصالحة صالحـاً . . وأن يكـون نتـاج البيئة السيئة سيئاً . . وهذا يكون في الغالب لا على الإطلاق.

أليس في شخصيات القرآن الكريم دليل على ذلك؟
ماذا كان من أمر امرأة نوح وابنه؟
ماذا كان حال امرأة لوط؟
وماذا كان شأن والد إبراهيم؟
وماذا كان منقلب امرأة فرعون؟

امـرأة فرعـون الذي استخف قومه فأطاعوه . . قال لهم : ﴿**أنـا ربكم الأعلى**﴾ فخـروا له ساجـدين! وقال لهم : ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ فقالوا له : آمين!! وقال لهم : ﴿**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من**

تحتي؟﴾ فخدعهم عن أنفسهم، وظنوا أنه مجري الأنهار ومنشيء الجنان.. استخف قومه فأطاعوه.. رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً.. وجاءهم موسى بالبينات فعموا وصموا... ورأوا السحرة ينكشف سحرهم ويؤمنون برب هارون وموسى.. فما زالت الغشاوة عن عيونهم...

ووقف في الملأ منهم مؤمن آل فرعون يذكرهم وينذرهم.. ويكشف لهم حقائق الحياة.. فما ازدادوا إلّا عمى وضلالاً..

السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون.. نجوم هداية في ليل ضلال.. مبصرون في قوم عمي.. يخبطون على غير هدى!

امرأة فرعون التي عاشت في نعيم لا يدركه خيال..

امرأة الإله المزعوم والرب المدعي.. الذي دان له قومه كباراً وصغاراً..

هذه المرأة تنكشف لها الحقيقة... وتبصر ما لم يبصر قومها.. إنها ترى من فرعون مالا يرى قومه..

يرونه في أبهته وعظمته.. وتاجه وسلطانه.. وبين خدمه وحشمه.. فيأخذهم بالرهبة ويخطف أبصارهم

obeikandi.com

بجلال الموكب والرياش والجند! ولكنها تراه مجرداً من ذلك كله.

تراه بين يديها وقد انسل من خدمه وحشمه.. وتاجه وعرشه.. وموكبه وجنده... تراه في ضعفه.. وهم يرونه في قوته.. تراه وقد غلبه النوم.. فتمدد لا يستطيع حركة...

وتراه وقد غلبه الجوع.. فهو يأكل كالثور حتى يمتلىء بطنه.. ويشرب حتى تصرعه الخمر...

ويطلب منها ما يطلب الرجل من زوجته... تضطرم الشهوة في نفسه فيقبل عليها..!

أي إله أنت يا فرعون؟
أيصيب الرب الإله ما يصيبك؟
أيضعف الرب كما تضعف؟
حاشا لله.. وتبارك الله رب العالمين!

وتضحك امرأة فرعون من قومها.. تضحك من زوجها.. تحس أنها في مسرح عجيب صدق فيه المشاهدون ما يرونه ونسو أنهم في مسرح.. وأن الممثلين أقنعة على وجوه!! ويطل النور في قلب امرأة فرعون..

obeikandi.com

وتكـون هذه المرأة لسان حق يجري الله عز وجل قدره بكلمــة تنـطقهـا. . يوم أن ألقى اليم بالسـاحـل الصنـدوق الـذي كان فيه موسى. . . وكان قلبها مهبط الرحمة الإلهية. . وكانت عينها ملقط المحبة التي ألقيت على موسـى. . ﴿**وألـقيت عليــك محبــة مني**﴾. . . ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون**﴾.

آمنت والجو من حولها بما فيه من ترف لا حد له يصد عن الهدى. . وأمواج الضلالة لا تكاد تترك فرجة للنور.

ولكن النور اقتحم الأسوار وأمواج الظلمات. . كما اقتحم القدر الإلهي تدبير فرعون وكيده. . فنشأ موسى في قصره ليكون تقويض ملكه على يده!!

آمنت امرأة فرعون إيماناً استحق أن يسجل في كتاب الله. . . ليسجل من بعد في ذاكرة البشرية. . لتظل امرأة فرعـون نجماً من نجوم الهداية التي تخرق المألوف. . وتأتي على غير توقع. . .

مَن هذه التي يتردد صدى صوتها على تطاول الزمن وبُعد السنين. . صوت خاشع. . يكشف عن قلب منيب مخبت إلى ربه؟

obeikandi.com

وماذا في هذه المناجاة التي تجلو الهم.. وتستنزل نور اليقين؟ ﴿**ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة**﴾.

لم تغرها قصور فرعون التي عاشت فيها.. وتقلبت في نعيمها.. لقد أدركت أنها نعيم زائل.. وفناء في دار فناء..

أبصرت الفناء فتشوقت إلى دار البقاء.. ﴿**ونجني من فرعون وعمله**﴾ دعاء فيه براءة من الطاغوت ذاتاً وعملاً، ﴿**ونجّني من القوم الظالمين**﴾ براءة من القوم الذين استخفهم فرعون فأطاعوه.. وعطلوا عقولهم.. ولم ينفعهم سمع ولا بصر ولا فؤاد.

أي امرأة هذه التي كانت أمة وحدها؟! كانت هي ومؤمن آل فرعون والسحرة في كفة.. وفرعون وقومه وما كانوا يصنعون في كفة!!

ما أعظم الإيمان حين يشرق في القلب! إن للإيمان أشعة تخترق الحجب.. وتكشف الزيف.. وتجلو الحقائق...

وفي النماذج القرآنية أكثر من دليل على ذلك.

obeikandl.com

مؤمـــن آل فرعـــون

اعتدنا أن يكون أتباع الأنبياء في قصص القرآن من عامـة النـاس الذين لا يملؤون أعين السادة. . فنراهم يعيبـون النبي أنْ كان أتبـاعـه من أراذل القـوم. . كمـا زعمـوا. . واعتـدنا أن نجد الملأ والمترفين والسادة في صف الكفر والفساد. .

تلك هي القـاعدة السائدة في مسيرة الإيمان التي تتبـدّى في قصص القـرآن. . ولكننـا نجد خرقاً لها في شخصية امرأة فرعون. . وشخصية مؤمن آل فرعون اللتين انحـازتـا من طبقـة المـلأ المتـرفين الكفرة. . إلى فئة المؤمنين الصادقين.

وشخصية مؤمن آل فرعـــون تتيح لنـا فرصـة نادرة للتنصت على جلســة مغلقـة من جلسـات علية القـوم الكـافرين. . وقد جمعهم البحث عن مخرج من الأزمة التي جاء بها موسى عليه السلام.

ها نحن نسمع القرآن الكريم يُجمل لنا أمر موسى وفرعون. . ثم يقفنا على مرأى ومسمع من تلك الجلسة

obeikandl.com

نسمع الحوار ونرى المتحاورين:

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين* إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا: ساحر كذّاب* فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال﴾

إن الملأ يقترحون استئصال ذكور بني إسرائيل.. امتداداً للسياسة القديمة التي سبقت ميلاد موسى. ويلفت النظر في هذا السياق التعقيب الإلهي على هذا الاقتراح العدواني **﴿وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال﴾**. فليس كل ما يكيدونه يتحقق، وليس كل ما يريدونه يقع، فلله جنود السماوات والأرض، والله من ورائهم محيط.

ويرتفع صوت فرعون باقتراح آخر هو قتل موسى خوفاً من تبديل الدين السائد، وإظهار الفساد في الأرض!! وفرعون هو ولي الأمر، فعليه أن يحمي دين قومه، ويردّ عنهم الفساد!!

ويردد المرء نظره في قول فرعون ويعجب!! أفيكون موسى النبي مفسداً في الأرض وفرعون المستعلي المستكبر باغي خير لقومه؟! إنها الموازين المنقلبة التي قد تغرّ المخدوعين.. أو عُمي القلوب، ولكنّها تنكشف

لمن ينظر بعين البصيرة . . . !

. . وبين اقتراح الملأ قتل أبناء الذين آمنوا من بني إسرائيل، واقتراح فرعون قتل موسى . . وفي هذا الجو العدواني ينطلق صوت غريب غير متوقع لا من الملأ . . ولا من السامعين للقرآن . . صوت يعارض القتل، ويدعو قومه إلى التبصّر والتدبّر . . ! !

أيمكن أن يكون في الملأ مثل هذا الرجل؟

كيف انقشعت عن عينيه غشاوة الزيف، وأبّهة الملك، وحجاب الترف وامتيازات الطبقة؟ !

وأي أيمان كان يملك بين جنبيه وهو يخاطر بحياته حين يقف في وجه تيار القتل . . بدعوة الملأ إلى الإيمان؟ !

إنه موقف لا يملّ المرء من تكرار النظر فيه . . وإنها شخصية لا ينقضي العجب من روعتها، وعمق إيمانها، وسداد رأيها، وحسن عرضها للقضية، وبراعة السعي إلى الوصول إلى الهدف من مداخل شتى . ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات . و إن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم . إن الله لا**

obeikandi.com

يهدي من هو مسرف كذاب* يا قوم لكم اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصـــرنـا من بأس الله إن جاءنـا؟ قال فرعون: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.

إنّـه يردّ على اقتـراح فرعون بقتل موسى، والقتل عقـوبة لجريمة مقترفة، فما جريمة موسى؟ ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾؟! وهل هذه جريمة تستحق القتل؟

إنها دعوى يُرد عليها بمثلها.. ولكنّها دعوى مصدّقة بالبينات: **﴿وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم﴾**، ثم إنّ لأمر موسى أحد وجهين:

إمّا أن يكون كاذباً.., فيحيق به كذبه.

أو أن يكون صادقاً.. وعندها ماذا هم فاعلون عندما يصيبهم ما يعدهم به؟!

وبعـد أن فنّـد شهوة القتل في نفس فرعون، وبرّأ ساحة موسى من استحقاق عقوبة القتل ينطلق إلى مجال آخـر، ويضـرب بسيف الحق حجابـاً آخـر. حجاب الملك والسطوة الذي يعمي ويُصمّ.. ويحوّل الأمر من حديث عن موسى إلى حديث عن حقيقة الدنيا.. فلئن

كان الملك اليوم لفرعون وملئه، فإنه لن يدوم، ولا بدّ أن يدور بهم الزمان دورته، ويأتيهم أمر الله . . ﴿**فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا**﴾.

ويأتي تعقيب فرعون على هذه الحجج الساطعة من الرجل المؤمن تعقيباً موجزاً يحاول به ادعاء الهداية والرشاد. . . ﴿**قال فرعون: ما أريكم إلّا ما أرى، وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد**﴾، ولكن هذا التعقيب الفرعوني لا يقطع التدفق الإيماني الذي انطلق به لسان المؤمن، وقد انكشف إيمانه بعد كتمان. . فهو يحمل روحه على كفه. . وقد آن وقت الدعوة إلى الحق بعد أن تميّز الحق من الباطل، وانكشف الزيف. وما له لا يفعل ذلك وقد رأى السحرة يخرّون ساجدين قائلين: ﴿**آمنا برب هارون وموسىٰ**﴾، ولا يضيرهم تهديد فرعون ووعيده. . فيردّون قائلين في تحدٍّ واستعلاء:

﴿**فاقض ما أنت قاض. . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا**﴾.

ويحوّل المؤمن صيغة الخطاب من تفنيد دعوى. . وتذكير ببأس الله الذي سيأتي، إلى لفت نظر إلى حقائق التاريخ في صوت فيه حُبّ الهداية، وحسن توسّل الداعية إلى القلوب القاسية. . لعلها تلين. . إنه يضع لهم

الحقائق بارزة ليبصروها. . ويرفع الحجب عن أعينهم. . ويدني الحقائق من بصائرهم لعلهم يهتدون. ويضيف إلى ذلك التذكير بما بعد الموت: ﴿**وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب* مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد* ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد* يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد* ولقد جاءكم يوسف من قبل البينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب* الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾.

هل كان فرعون وملؤه ينظر بعضهم إلى بعض، وهم يسمعون هذا التيار الجارف لزيفهم يجتاح أسماعهم، ويقول بعضهم لبعض همساً: هل هو موسى اجتاز الأحراس، ودخل مجلسنا متزيياً بزي واحد منا؟! أيكون منا من ينطق بلسان موسى. . . ويؤمن بدعوته؟!!

إنهم في قرارة أنفسهم لا يستطيعون دفعاً للمنطق الذي جاءهم به. ولذلك وجموا. وكان فرعون يقطع ذلك

الصمت بتعقيب موجز يحاول به تخفيف أثر هذا التيار النوراني الذي يغشى ظلمة مجلسهم، فنراه يعقب على هذا البيان الذي ألقاه الرجل المؤمن بقول يريد به تحويل مسار الحديث، فيوجه الخطاب إلى هامان قائلاً:

﴿يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب* أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى و إني لأظنه كاذباً وكذلك زُين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلّا في تباب﴾.

أهي محاولة امتصاص لما ثار في المجلس من صدى الصوت المؤمن بمحاولة التحقق من صدق موسى بهذا الأسلوب الهازل الذي أطلقه فرعون؟ إن التعقيب القرآني على قوله يكشف شيئاً من هذا.. لقد كان السبيل أمام فرعون وكانت الحقائق أمام عينيه.. استيقن من صدق موسى هو وملؤه.. ولكن جحدتها أهواؤهم الظالمة.. وصُدّوا عن السبيل..

ولم يثن الرجل المؤمن ما سمع من فرعون من قول هو إلى الهزل أقرب منه إلى الجد.. فمضى يبلّغ دعوته ويقول كلمته، وليكن ما يكون.. فليس ثمة مجال للتراجع أو التخفّي...

obeikandi.com

ويبدو لنا في المجلس قطبان يحاول كل منهما الاستحواذ على السامعين: قطب كفر.. هو فرعون.

وقطب هداية.. هو الرجل المؤمن الذي نراه يمضي في دعوته مصرّحاً بمراده:

﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد* يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار* من عمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب* ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار* تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار* لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار* فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد* فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾.

إن في كلمات هذا المؤمن ما يكشف عن الضغط الذي وجهه إليه الملأ ليردّوه عن إيمانه، لم تُذكر لنا التفاصيل ولكننا نستشف ذلك من قوله: **﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾.**

هل تلقى أساليب شتى من الترغيب والترهيب؟

هل تحول ذلك المجلس من بحث أمر موسى إلى بحث أمر هذا المؤمن الذي شق صف الملأ . . وظهر منه ما لم يكن يدور في خيالهم؟

ربما . . ولكننا نرى الإصرار على الإيمان في كلماته الواثقة التي نطق بها لسان من باع نفسه لله . .

﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوّض أمري إلى الله﴾، ويكيد له فرعون وملؤه . . كما كادوا لموسى ومن آمن معه . . ولكن الله ينجيه مع موسى وبني إسرائيل .

وكما يتردد في سمع الزمان صوت امرأة فرعون ومناجاتها ربها . . يتردد في سمع البشرية هذا الموقف الإيماني الرائع لمؤمن آل فرعون . . نموذجاً حياً للمؤمن الذي ينبثق الإيمان في قلبه . . وكل ما حوله يدعوه إلى الكفر . . حفاظاً على الدنيا وزينتها . . والطبقة وامتيازاتها . . ولكنه نور الإيمان . . الذي يكشف الحقائق . . .

حقيقة العبودية التي يجب أن يقف عندها الإنسان . . .

obeikandl.com

وحقيقـة الـدنيا وزخـرفها ومتاعها وما فيها من جاه وسلطان ومال. .

وحقيقة الآخرة التي هي دار القرار.

obeikandi.com

يوسف (١)

كثيرة هي الأشياء التي يراها الناس في نومهم.

يرون عجائب وغرائب.. ويهمس بعضهم فيما بينه وبين نفسه: «إني لأرى أشياء يعجز عنها أبرع المخرجين!! أرى أشخاصاً وأماكن وأشياء ومخلوقات لا أدري من أين تأتي وكيف تجتمع؟!!»

ويذهب الناس في الأحلام والرؤى المذاهب.. بين مصدّق ومكذّب.. وموقن ومتشكك.. ولكن المؤمن يقف منها الموقف الذي بيّنه الشرع. وقد جلى لنا رسول الله ﷺ حقيقة ما يراه الإنسان في منامه بقوله: «الرؤيا ثلاثة: فبشرى من الله، وحديث النفس، وتخويف من الشيطان...».

وقوله: «الرؤيا ثلاثة: منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم. ومنها ما يهمّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1]

---

(١) (صحيح الجامع الصغير رقم ٣٥٣٣، ٣٥٣٤).

obeikandi.com

ها نحن أمام يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وهو غلام غضّ الإهاب يغدو على والده وفي عينيه عجب يقصّه عليه:

﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾.

تصوّر هذا المشهد..! الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً تسجد لهذا الغلام! أهذا حديث نفس؟ ومن ذا الذي يحدث نفسه بمثله؟! أهو من الشيطان ليحزن رائيه؟! إنها ليست بشيء محزن.. فماذا تكون؟!

إنّ وراءها لسرّاً!!

ويفهم نبي الله يعقوب عن الله عز وجل ما أراه ليوسف! وتستيقظ في نفس يعقوب كل دواعي الحب لولده الأثير لديه.. والخوف عليه.. إنها بشرى بنعمة.. وكل ذي نعمة محسود! وكم من نعمة نغّصها حسد حاسد، أو كيد كائد.. فليستعن بالله، وليكتم ما رأى.. حذراً من الكيد!! كيد إخوته وتحريض الشيطان لهم عليه!! وتتبدى لنا في هذه المخاوف صورة لواقع بشري كثير التكرار. صورة العلاقة بين الإخوة...

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا

obeikandl.com

لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين﴾.

وقد يعجب المرء فيقول: لم لا يفرح الأخ بالنعمة تصيب أخاه؟ ولم يكيد له؟

إنها النفس البشرية الأمّارة بالسوء. . !

وهل نسينا قصة ابني آدم والقربان؟!

وإنه الشيطان. . محرك الشرور في الأرض. . يوغر الصدور بالأحقاد. . ويجعل الأطماع مقاداً إلى الردى. .

ويبشر الأب ابنه بمدلول رؤياه. . ويسكّن مخاوفه من كيد إخوته. . فإن له عاقبة وشأناً!! وسيكون لآل يعقوب من تلك النعمة نصيب. . .

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق﴾.

أكان يعقوب ممن آتاه الله تأويل الأحاديث؟

إن فهمه للرؤيا واستنباطه ما فيها. . يوحيان بذلك. .

ترى. . كيف استقبل الغلام تلك الرؤيا وتأويل والده لها؟

obeikandi.com

أي مستقبل انفتحت له آفاقه؟! وأي مخاوف أطلت على قلبه الصغير وهو يتوقع الكيد من إخوته. . . ؟!

وهل وفى بما طلبه منه أبوه فكتم رؤياه. . ؟ أم أنه لم يطق على كتمانها صبراً. . فباح بها لواحد منهم. . ثم سرت بينهم جميعاً. . ؟! وهل منع تحذير والده له من البوح بالرؤيا من وقوع المقدور؟! أم أن الشيطان أشعل الغيرة في نفوس الإخوة من غير أن يعلموا بأمر الرؤيا. . وأوحى إليهم بما كادوه ليوسف؟!

وكيف يمكن أن يتحقق قدر الله. . إن لم تجرِ به الأسباب؟!!

ما كان لمصر أن تسير إلى يوسف ليكون فيها عزيزاً!!

بل لا بدّ أن يسير هو إليها! ولكن: كيف؟!

إن الله إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب. . .

وها نحن نرقب الغلام يوسف. . ونرقب الرؤيا التي لاحت له في نومه ترسم مستقبله البعيد. . . نرقب لنرى كيف يتحقق وعد الله في حياته. . . لنرتد إلى حياتنا وحياة غيرنا. . نبصرها ونتبصّر كيف يتحقق قدر الله فيها. . كيف تتفتح الأكمام عمّا فيها. . . ويخرج الخبءُ المستكنُّ فيها. . يحملنا الوحي الإلهي لنجلس على

مقربة من اجتماع لإخوة يوسف . .

ما الذي جمعهم؟! ما الذي يشغل بالهم؟!
بين يدهم مشكلة اسمها : يوسف!!
إذاً . . لقد بدأ الكيد . . وبدأ الشيطان يفعل فعله . .
يوسف يستأثر بحب أبيه كلّه!! أحبّه حباً شغله عن الإخوة «العُصبة»!! فإذا نظروا إلى وجه أبيهم لم يبصروه هو! بل وجدوا فيه صورة يوسف لشدة تعلقه به!! فثارت في قلوبهم الضغائن . . وهم يريدون النصيب الأوفى من قلب أبيهم ووجهه!

أتراه الشيطان ضخّم لهم الأمر . . وهوّل لهم حب أبيهم ليوسف . . . وانشغال قلبه به عنهم . . .؟!

وما الحل الذي قدموه لهذه المشكلة؟ لا تعجب فالشيطان سيد الجلسة ومدير الاجتماع :

﴿اقتلوا يوسف . . . !!﴾
هكذا . . اقتلوا أخاكم . . . .
وما ذنبه؟ وما جريمته؟ أحبُّ الأبِ لولدٍ يدعو إخوانه الآخرين إلى قتله؟! ذلك أول ما بدأ لهم في شأنه!! ولكنه مقرون بحلّ آخر . . .

﴿أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾

إن لم يكن القتــل. . فليكن النفي! والنفي أخـو القتل. . كلاهما يُخلي وجه الأب للإخوة العصبة. .

وتعجب وأنت تسمع في ختام هذين الاقتراحين قول القائل: ﴿**وتكونوا من بعده قوماً صالحين**﴾!!

أي صلاح بعد هذه الجريمة؟! أيكون الإثم طريقاً إلى التقـوى؟! ويأتي صوت مرجّـح لاقتـراح النفي. . ويعـطيهم الوسيلة التي تحقق لهم ما يريدون، وتحفظ على يوسف حياتـه. . الجُبُّ!! ممر القوافل. . تلتقطه منه قافلة. . وتمضي به بعيداً. . فتطوى صفحة يوسف من حياة أبيكم. . ويخلو لكم وجهه!!

وينفض الجمع وقد أبرموا أمراً. . وبقي التنفيذ.

ولا يعــدم الشيطان الــوسيلة. . فيوحي إليهم أن يستــدرجـوا يوسف معهم إلى رحلة بريّة. . قريبـة من الجب. . ولكن. . كيف يحتالون على أبيهم الذي زاد حرصـه على يوسف بعـد تلك الـرؤيا. . . وزاد شكّـه فيهم. . ؟! بل إنهم لم يخفـوا عن والده ما يجدونه من ذلك فقالوا:

﴿**ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون**﴾؟!
وهذا يكشف عن روح الجوّ السائد في العلاقة بينهم وبين

يوسف. . فما في القلب تكشفه العيون وفلتات اللسان!! ويتوسلون إلى أبيهم بليّن القول. . وطيب الكلامِ. . . ويبدي الأب من الأسباب ما يثيرهم ويزيدهم إصراراً على ما أرادوه. . .

﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾

إنـه لا يطيق فراقـه يومـاً واحداً. . يذهب فيه إلى البرّية. . ألهذا الحدّ بلغ التعلق. . إذاً لا بد من تنفيذ الخطة!!

ويجادلون أباهم ولا يتركون له حجة. . وبخاصة في دحض الخوف من أن يأكله الذئب. . ويعلم يعقوب أن الحذر لا يردُّ القدر. . وأن أمر الله لا بدّ أن يتم. . . وأنها محنة لا بدّ فيها من الصبر. . إنه يقرأ الشرّ في عيونهم. . ويقرأ تصميمهم على أخذ يوسف معهم. . فماذا هو فاعل؟!

ليذهب يوسف. . . وليحفظه الله!

ترى. . كيف شيّع يعقوب ابنه؟!

أكـان يعلم أنـه وداع لن يعقبـه لقاء إلّا بعد سنين طويلة. . يشيخ فيها. . ويمرّ بمحنٍ عديدة. . .؟!!

ويمضي إخـوة يوسف به. . وتنقلب الـوجـوه التي

كانت قبل قليل تجادل أباه في لين ورفق.. وتنطلق الألسنة مترجمة ما في القلوب من الحسد.. وتمتد الأيدي لتشدّ الوثاق.. ويُدلّىٰ في غيابة الجب!!

ويعجب يوسف وهو يرى من إخوته ما يرى...

ولعله استغاث واستنجد.. وذكّرهم بحقوق الأخوّة.. وناشدهم الله أن يرأفوا به.. وبأبيهم.. ولكن آذانهم كانت في صمم... وقلوبهم كانت أقسى من الحجر.. فلم يسمعوا له صوتاً...

وينظر يوسف إلى نفسه في غيابة الجب... وتلفّه المخاوف... ويعصر الألم قلبه... يذكر أباه الذي لا يطيق له فراقاً... ويذكر إخوته الذين فعلوا ما فعلوا... ويلوح له مستقبل مجهول... إلى أين... وماذا سيكون؟!

وتبدأ رعاية الله له في محنته... فيوحي إليه ما يطمئنه ويسكّن مخاوفه... وأن الله سيعلي شأنه... ويخبر إخوته ذات يوم بما كان من شأنهم معه.. ولكنّ دون ذلك اليوم محناً.. محنة فراق الأب الملهوف... ومحنة خيبة الأمل في الإخوة الذين نزغ الشيطان بينه وبينهم... ومحنة الوقوع في الرق...

فها هي قافلة متجهة إلى مصر تمرّ بالبئر. . ويتعلق يوسف بالحبل ليوثَق به عبداً يباع بثمن بخس دراهم معدودة. . .

ترى. . لو كانت هذه القافلة متجهة إلى الشام أكان أمر يوسف يتم على ما تمّ عليه؟

إنه قدر الله. . الذي وقّت إلقاء يوسف في الجب قبيل مرور القافلة. . ليُحمل إلى مصر. . . ويشتريه العزيز. . . لا غيره!! وليكون من أمره ما كان! ويلفت النظر أن يعقوب عليه السلام يستسلم لفرية أولاده. . وهو يعلم أنهم كاذبون! فلم يستنفر أحداً ممن معه ليبحث عن يوسف. . بل لم يفعل هو ذلك. . وردّ على ما قالوه. . بهذا التسليم لأمر الله. .

﴿**بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾، استسلم ليتم قدر الله. . .

وكذلك استسلم يوسف. . لم يبد مقاومة للقافلة. . ولم يحاول فراراً. . مضى حيث جرت به الأقدار. . بعد أن جاءه الأمان من الوحي. . فعلم أنه بدأ الطريق الذي به تتحقق رؤياه. .

obeikandi.com

يوسف وامرأة العزيز

إذا كنا رأينا أمثلة راشدة من النساء في امرأة فرعون وأم موسى ومـريم بنت عمران . . فإننا مع امرأة العزيز أمام شخصية من نوع آخر . إنها امرأة من الطبقة العليا في المجتمع ، وتحت يدها الخدم والحشم ! وما شاءت من متاع الدنيا . . .

إنهـا سيـدة من سيـدات القصور يأتيها زوجها . . عزيـز مصـر . . بغلام اشتراه . . قائلاً : ﴿أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . . ﴾

وتمـرّ الأيام والسنـون . . والغـلام يكبر وينضج . . وتتفتح آيات جماله أمام عيني سيدة القصر التي لم تبرح أذنها وصية زوجها : ﴿عسىٰ أن ينفعنا﴾ ! ! ويبلغ يوسف مبلغ الرجال . . وينمو في قلبها ميل غريب نحوه ! !

ميل ينمـو ويشتـد ويستحكم ! لقـد طال زمن العشـرة . . . وتغلغل الحب في شغاف القلب . . حتى إنها لم تعد تبصر في يوسف . . أنه عبد في قصرها ! بل صارت تحسّ أنه هو السيد ! ! سيدها . . . وسيّد القصر ! !

وصـــارت تبـــدي له الميل. . وتلين له القـول. . تستعطفه بالنظرة والكلمة والرعاية. . . ! !

أكان يوسف في غفلة عمّا تبدي وتخفي؟! أيشكو سيدة القصر إلى سيده؟! وهل يُسمع قول مثله في مثلها؟!

ليس له إلّا الصبر والاعتصام بإيمانه!!

ولمّـا طال الأمـر. . ووجـدت المرأة فتاها لا يزيد تقربها منه إلّا صدّاً. . وميلها إليه إلّا إعراضاً. . وتذللها إلّا استعلاء. . قالت: لا بدّ من خطة مُحكمة لا يجد منها يوسف مناصاً!! يقع مرة واحدة! ثم يسهل عليه الأمر. . ويلين!!

. . . أخْلَت المكـان الـذي أرادتـه مسرحاً للخطيئة. . وغلّقت الأبـواب كيلا يجـد مهـرباً. . وليجد الأمان. . واتخـذت كامـل زينتها. . . وصرّحـت بما كانت تكنّى به. . وطلبت بلسانها ما كانت تطلبه بالنظرة. . والإيحاء!!

أي موقف أنت فيه يا يوسف؟! فتى متوقد الشباب قد بلغ أشدّه!! وامرأة ذات منصب و جمال تُقبل مصرّحة بعد طول محاولة؟!!

obeikandi.com

ويأتي ردّ الفعل الأول لدى يوسف على هذه الصدمة النفسية التي كشفت حقيقة شخصيته: ﴿**معاذ الله إنه ربّي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون**﴾.

لم ينس ربه.. فاستعاذ به!

وذكر الأمانة التي حملها بالعمل لدى سيده.. وإيثاره إياه... فأبى أن يكون خائناً لمن أراده في منزلة الولد!

وما تدعوه إليه ظلم.. فيكف يُقدم عليه؟!

أتراها سمعت ما قاله يوسف؟!

لقد حال بينها وبين ذلك ما هي فيه من غمرات الشهوة.. وأمواج الهوى!! إنها في موقف لا تراجُع عنه! موقف العُري النفسي قبل العُري الجسدي! فكيف تتراجع؟!

كان منها إقبال لا إدبار له! وكان من يوسف اعتصام بربه! إنه يرى ما يدعوه إلى الإقدام.. ولكن الله يعصمه ببرهان يراه! فيحاول الخلاص منها.. يحاول الهرب! ولكن كيف والأبواب مغلّقة؟! فيعدو.. وتعدو وراءه.. وتمسك بقميصه.. ويزداد تفلّتاً وعَدْواً حتى تشقق القميص!!

openkandi.com

إنها معركة! شدّ فيها يوسف معرضاً عن الفحشاء ما استطاع! وجرت المرأة خلفه أشدّ ما كان الجري!

و يأتي الله بالفرج في أشدّ ساعات الحرج!!
سيد القصر لدى الباب الذي استبقا إليه...
(يا الله!!) ماذا لو استجاب لإغرائها.. وجاء سيد القصر ووجدهما على تلك الحال؟!

إنها عصمة الله التي يحفظ بها عباده المتقين!

وينقشع عن المرأة ضباب الشهوة والهوى! وترتدي قناع العفّة والشرف! وتقذف يوسف بما هيّأت نفسها له!

وينظر يوسف.. فيرى الكذب في كل حرف قالته.. وينطق بالحق الذي كان.. في قوّة وإيجاز...

﴿هي راودتني عن نفسي﴾!

يردّ بذلك على قولها الذي ارتجلته وكأنما كان مدبّراً من قبل.. **﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلّا أن يسجن أو عذاب أليم﴾**. ويأبى الله إلّا أن ينصر نبيّه الصدّيق.. فينطق شاهد من أهلها بالدليل القاطع.. ويُبَرّأُ يوسفُ من الجريمة!!

ويأتي ردّ فعل العزيز في هذا الموقف الذي تغلي فيه

obeikandi.com

دماء الرجال... يأتي بارداً.. رزيناً.. يستفزّ الأعصاب!

﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك﴾!!

أيكون في هذا الجواب إيماء إلى ما قاله بعض المفسرين من أن العزيز كان ناقص الرجولة... وأن امرأته بقيت عنده هذه السنين الطوال عذراء؟!

وينفضّ الجمع.. ويمضي يوسف في حياته.. وصورة الموقف لا تبرح خياله.. أيمكن أن يحدث هذا؟!! ويحمد الله الذي نجّاه وعصمه.. ويسأله أن يكون ذلك الموقف خاتمة المحاولات الآثمة!!

ولكن شيطان امرأة العزيز لم يبرح رأسها..!! ولم يقمع هواها موقف الفضيحة أمام زوجها وبعض أهلها!! ويأتيها المدَدُ من نسوة في المدينة سمعن بخبرها.. وعجبن أن تراود فتاها... وهي من هي!!

وليس شيء أسرع من قالة السوء على ألسنة الناس.. إنهم يتلذذون بها.. ويتفكهون في مجالسهم... أسمعتَ.. أسمعتِ..؟! يقال كذا.. ويقولون.. إنها...!!!

وبلغت أقوالهن مسامع امرأة العزيز! هل شعرت

بالخــزي؟ هل احمّـر وجههـا خجـلاً؟ هل استغفـرت لذنبها. . كما قال زوجها. . وشعرت بعظم الخطيئة؟!

لم تزدد إلاّ عناداً!! ولم يزدد شيطانها إلاّ نفخاً في رأسها! وإيقاداً لهواها!

ودبّر الشيطان لها مكيدة تستعين بها. . وبكيد النسوة معها على يوسف وصبره واستعصامه!!

ارادت أن تظهــر بين أيديهن عذرهــا. . لتقــطع ألسنتهن! فليرين مرة واحدة. . ما تراه كل يوم!!

وكانت الوليمة. . . وآتت كل واحدة منهن سكّيناً. . وأخذن في الحديث الذي تأخذ فيه النسوة. . وبينما هن كذلك إذ طلع عليهن يوسف بأمر سيدته!! وينكشف لهنّ سرّ هذه الـدعـوة!! ويسجّـل القرآن أروع تصوير تلك الصـدمة التي أحدثها ظهور يوسف عليهن مما أذهلهن عن كل شيء!!

﴿وقـالت اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً، إن هذا إلاّ ملك كريم﴾.

ووجـدت فيهن امـرأة العزيز عضداً ونصيراً. . ولم تجد حرجاً بعد أن رأت منهن ما رأت أن تكشف القناع. .

وتقول في صراحة ممجوجة وإصرار على الفاحشة:

﴿فذلكن الذي لمتنّني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنّن وليكوناً من الصاغرين﴾.

هكذا في وضوح شائن... وبيان فاحش!

أي محنة أنت فيها يا يوسف الصدّيق؟!

شباب وجمال.. وإصرار على المراودة.. وتلويح بمستقبل مظلم في السجن والعذاب؟!

الثمرة الحرام منك قريب.. وأنت تنظر إليها.. وأنت في تضرُّم الفتوّة فتقول: معاذ الله!

لم يكفك كيد امرأة واحدة.. بل ها هي قد حشدت معها نسوة في المدينة يغرينك ويدعونك ويمنّينك الأمانيّ؟!!

أي حماية أحاطت بك فلم تنفذ إليك سهام هواهن؟!

وأي عصمة شملتك صرت بها مضرب المثل في الصبر على فتنة النساء؟!

ويبلغ كيد النسوة بيوسف مدى لم يعد يطيقه.. فيتنغص عيشه.. فلا لَيْلُهُ كَلَيْل الناس، ولا نهاره

كنهـارهم! إنه في احتراق وصراع! في قلق وضيق. . !
فليجـأ إلى من بيده كل شيء. . وهـو على كل شيء قدير. . فليلجأ إلى ربـه الـذي أراه الشمس والقمـر والكـواكب ساجدة له!! وليلجأ إلى ربه الذي أمّنه يوم ألقاه إخوته في الجبّ. . وهيّأ له العيش في قصر العزيز!!

ونسمـع يوسف يدعـو ربه دعوة في كل حرف منها رجاء مضطر. . وآهة مكلوم! أحاطت به سهام الشياطين تريد أن تستزلّه!

إنه بشر. . ولئن لم تشمله رعاية مولاه فلن يصبر!

وليس أمـامـه إلّا أحـد طريقين. . الاستجـابـة للهوى. . أو السجن! فليكن السجن. . ما دام مخرجاً من مراودة النسوة الهاويات!!

ودعا ربه أن يُسجن. . ويُصرفَ عنه كيدهن! ويكون سجن يوسف مخرجاً له ولعزيز مصر!!

فليُسـجـن يوسـف حتـى حين! لتـسكـن الألسنـة الـلاغـطة. . وتهـدأ رياح الفضيحـة!؟ ويكون السجن مخرجاً ليوسف. . يأمن فيه على دينه. . ويسلم له تقواه! ولكنه يدخل في محنة جديدة!

صحيح أنه دعا ربه أن يسجن دفعاً لكيد النسوة. .

ولكنـه يحسّ في أعمـاق نفسـه بالـظلم! فالبـريء في ظلمات السجن. . والمجرم الحقيقي يمرح في القصر عارياً عن التهمة!!

ولكن لله في كل أمر حكمة! قد تبدو. . وقد تخفى!
والمؤمن يثق بحكمة الله عز وجل. .
ويسلم كل أمره إليه. .
فكم من محنة جلبت منحة!!

obeikandl.com

يوسف السجين (٢)

لعلّ يوسف لم يفرح منذ ولدته أمه الفرح الذي وجده يوم قيل له: إلى السجن حتى حين!!

لم يسأل: لماذا؟! لأنه يعرف السبب!

﴿**ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين**﴾. ولعل امرأة العزيز.. بعد أن يئست من يوسف.. همست في أذن زوجها الذي أحكمت طوقها على خناقه:

ـ أيرضيك ما يقال في زوجك؟! أترضى أن يكون عرضك على ألسنة الناس؟!!!

ولعله نظر إليها نظرة عتاب قائلاً:

ـ أليس ذلك صنع يديك؟! ألستِ أنتِ التي راودته عن نفسه؟! فماذا تريدين أن أصنع؟!

ولعلّها أبدت من نفسها ما تبدي المرأة في مواقف الحرج من الضعف الذي تتسلل به إلى مكامن قوة الرجل.. لتنفذ بها إلى ما تريد:

obeikandi.com

ـ لا أريد أن تقتله. . ! ولا أريد أن تعذبه! بل أريد أن يلقى في السجن حيناً من الزمن! وعندما ينتشر الخبر بين الناس أنّ يوسف قد سُجن. . يعلمون أنه هو المجرم لا أنـا!! وبعـد أن تهـدأ الألسنة. . لا بأس أن يخرج من السجن. . وليكن في السجن مكرّماً معززاً!!

ولعلّ الفكرة قد راقت للعزيز. . ! ليكن يوسف في السجن. . وهو قبل كل شيء. . وبعد كل شيء عبد من العبيد! ولن يضيره أن يُلَوَّث عرضه . . ويهمس الناس بتـطاولـه على سيدته!! أما امرأتي فهي زوجة العزيز!! فليسجن يوسف. . ولتكفّ الألسنة عني. . وعن امرأتي!!

﴿ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه﴾

مضى يوسف إلى السجن. . مفضـلاً ضيقـة على فسحـة القصر ونعيمه!! ودخل يوسف السجن. . ولعله جلس في زاوية من زواياه. . ودارت في رأسـه أحداث حياتـه. . وأبـوه. . ورؤياه. . وإخـوتـه. . والقـافلة. . والرّق. . والقصر. . وامرأة العزيز. . والنسوة!!

دارت في رأسه. . ودارت! ثم أفاق من دورته تلك ليجد نفسه في السجن فيقول: الحمد لله الذي صرف عني السوء، وكيد النساء!!

وكما كان يوسف في القصر وفاءً وإخلاصاً . . وأمانة . . كان في السجن كذلك . . مع زملائه . . . !

ولعله لفت أنظارهم بما آتاه الله من علم وحكمة واستقامة . . فمالت إليه قلوبهم!

وهل هي المصادفة أن يدخل معه السجن فتيان من حاشية الملك . . يتهمان بتدبير مكيدة لسيدهما؟!

وهل هي المصادفة أن يرى كل منهما رؤياه . . فيعرضها على يوسف؟

وهل في الوجود صدفة . . أم هو القدر الحكيم الذي شاءه العليم الحكيم . . لتكون الأحداث سبباً في تحقق وعد الله لعبده يوسف . . ولكن بعد بلاء ومحنة؟!

ويقصّ كل منهما رؤياه على يوسف . . ويكشف لهما عمّا آتاه الله من القدرة على معرفة الأمور قبل وقوعها .

﴿**لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي**﴾ ، ومما آتاه الله . . تأويل الأحاديث!

ولئن أقبل الفتيان على يوسف يطلبان ما يريدان . .

obeikandi.com

فإنه أراد أن يحقق في نفسيهما ما يريد! فقبل أن يجيب عن رؤياهما بيّن لهما سبيل الحق في الاعتقاد.. وكشف لهما عمّا هما فيه وقومهما من الضلال.. ثم عبّر لهما الرؤيا.

سجين مظلوم! ولكن الظلم لا يملأ قلبه حقداً! ولا ينسيه من هو! فسواء أكان في القصر أم في السجن.. فإنه يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم...

ولعل يوسف قد قصّ عليهما شأنه مع امرأة العزيز... وما أصابه من الظلم بدخول السجن.. بل إن السياق ليصرّح بذلك عندما يهمس يوسف في أذن الذي ظنّ أنه ناجٍ منهما ﴿**اذكرني عند ربك**﴾!! فربّما يكون في هذا الذكر رفع للظلم الذي وقع عليه!!

ويخرج ذلك الناجي! وتأخذه فرحة النجاة! وتأخذه دوّامة الحياة! وكأنّما نُسخت من ذاكرته أيام السجن والرؤيا وتأويلها ومؤولها!!

أكانت سنوات يوسف في السجن خلوة طويلة.. أُعدَّ فيها للمرحلة التالية؟! أم كان القدر الإلهي الحكيم يؤجل خروجه من السجن ليوافق أحوالاً عامة تظهر فيها الحكمة المستكنّة في قلبه وعقله؟!

opeilkandr.com

وهـــل يخلو قدر إلهي من حكمـــة؟! ولكن أكثـر الناس.. لا يعلمون!

وتمـــرّ سنـــون... ويوسف في السجن.. ويأتي الأجل المقدّر... فيرى الملك رؤياه!! ما أعجب أمرك يا يوسف! في صباك رأيت رؤيا أخافت والدك أن تحدث بها فينزغ الشيطان بينك وبين إخوتك! وقد كان ما كان منهم!!

وفي السجن رأى صاحبـاك رؤياهمـا.. ثم ها هو ملك مصر يرى رؤيا.. بين يديك مفاتيح تأويلها!! ما أظنك نسيت قول والدك يعقوب من سنين..

﴿**وكـــذلـك يجتبيـك ربـك ويعلمـك من تأويـل الأحاديث ويتم نعمته عليك..**﴾ فانظر أثر هذه النعمة!

يرى الملك رؤيا عجيبة! وكأنه لم يرها مرة واحدة! بل ألحّت عليه... حتى لم يطق لها كتماناً.. وعرف أن لها شأناً! فقال للملأ: ﴿**إني أرى سبع بقرات**﴾، ولم يقل: رأيت!!

وكـــان من حكمـة الله أن لم يكن بين المـلأ من يعبّـرها، أو يدّعي علم ذلك.. وأن يسمع خبرها ساقي الملك الذي نجا من السجن.. وكأنّما رُدَّت إليه ذاكرته

المفقودة! ﴿**وادّكر بعد أمّة**. .﴾ وعادت إليه رؤياه التي رآها! وتذكر ما قاله يوسف. . ﴿**اذكرني عند ربك**. . !﴾ أتراه شعر بمرارة الأسى. . وقد خيّب ظن رفيق السجن الطيب. . ولكن ها هي فرصته. . ولو بعد سنين!

أي موقف جميع بين الساقي ويوسف بعد هذه السنين؟!

أكان من يوسف عتاب. . ومن الساقي اعتذار؟!
ها هو الساقي يقص رؤيا الملك. . .
وها هو يوسف يفكّ مغاليقها. . ببيان شافٍ مقنعٍ. .
سبحان الله! كيف يجعل لتحقيق أقداره أسباباً!!

ويسمع الملك التأويل. . ويقع من قلبه موقع القبول والتصديق. . ويعلم أن وراء هذا التأويل رجلاً وأي رجل! فيقول: ﴿**ائتوني به**﴾. . . وكأنما اعتاد يوسف السجن فلم يعد يضيق به. . وليس في عجلة من أمره. . فلا يسارع في الإجابة!! ولا يهرع إلى باب السجن عند انفتاحه! لقد كان المتوقع أن يسجن حتى حين! فطال الحين حتى صار سنين!!

فهل نسيه سيده؟ وهل نسيته سيدة القصر؟ أم ليس له عندهما شأن يستحق أن يذكر به ويُنصف؟! فكيف يخرج من السجن قبل أن يبرّأ من الذنب الذي أُلصق

به . . وأدخل السجن بسببه؟!

وكان له ما أراد! وجيء بالنسوة وسئلن!!
يا له من موقف وفضيحة . . ولو بعد سنين!!

لقد ظن العزيز وامرأته أن (ملف) القضية قد طوي!! وأن عرض العزيز وامرأته قد برىء!! فيوسف قد سجن . . وانتقلت الريبة من المرأة إليه . . . !

ويأبى الله إلّا أن ينصف نبيه المظلوم!
جيء بالنسوة . . وامرأة العزيز . . وووجهن بالسؤال:
﴿ما خطبكن إذ راودتن يوسف عنه نفسه﴾!!

إنها تهمة لا تحقيق . . لقد بان أن يوسف بريء . . ولا بدّ من شهادة الشهود على ذلك!

ونطقت النسوة بما علمن من نقاء يوسف وبراءته من الذنب!
وجاء دور امرأة العزيز . . ولا بدّ أنها قد غيّرتها السنون . . وسكت عنها شيطانها . . وخمدت فورة الجسد . . فنطقت بالحق . . وكشفت عمّا كان، معترفة بالذنب . .

﴿الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾.

obeikandl.com

وينظر يوسف في الموقف.. ولعله دارت في رأسه خواطر شملت مراحل المحنة.. ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه.. ففيم إذاً كانت المراودة.. والاتهام؟ وفيم كان السجن الطويل؟!

ولعله رجع إلى ما هو فيه.. ونظر إلى نفسه بين يدي ملك مصر.. وراجع ما كان من أمر رؤيا الساقي وتأويلها.. ورؤيا الملك وخروجه من السجن..

لعله نظر في ذلك كلّه وقال: كان ما كان ليقضي الله أمراً كان مفعولاً...

وهكذا طويت صفحة جديدة من حياة يوسف.. وانقضت مرحلة من مراحل المحنة.. وها هو يقترب من تأويل رؤياه.. بعد أن فُتن فتونا..

﴿والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.

obeikandl.com

يوسف العزيز (٣)

. . . وخرج يوسف من السجن!

لقد دخله قبل بضع سنين عبداً متهماً بعرض سيدته! وها هو اليوم يخرج منه بأمر ملكي، يبرىء ساحته بالدليل القاطع، باعتراف النسوة وامرأة العزيز! ويُفتح ليوسف قلب الملك قبل قصره. . وينال لديه الحظوة والمكانة التي يعبر عنها قوله: ﴿**إنك اليوم لدينا مكين أمين**﴾.

لقد بدأت سحب النعمة عليه وعلى آل يعقوب تتجمع في الأفق. . وعما قريب ستمطر. .! إنه يتذكر قول والده يعقوب منذ سنين وقد قصّ عليه رؤياه ﴿**وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب**﴾.

فماذا فعل الله بيعقوب وآله هذه السنين الطويلة؟!

ويتولى يوسف «خزائن الأرض» في مصر. . وتقبل السنون السبع المخصبة. . ويتخذ من التدابير ما يقي به الناس شر السبع العجاف. وازداد يوسف من الملك قرباً، وفي الأرض تمكيناً. . وصار عزيز مصر. ولم ينس

obeikandi.com

أباه وإخوته على طول السنين. . ! وتقلّبه في النعيم بعد سنوات العبودية والسجن!

كان يوسف يشرف على صرف الميرة للناس بنفسه. . لا يريد أن تتلاعب الأيدي بما أحصن من الأرزاق. . وكان يدخل عليه الداخلون فيأمر لكلٍّ بما يستحقه. . يقايض ما معهم بالقمح! وبينما هو في شأنه إذ دخل عليه ثلة من البدو! خفق قلبه لدخولهم. . نظر في وجوههم. . أتراهم هم! بيني وبينهم سنون! سحنتهم. . وألسنتهم. . إنهم هم! ودارت في ذهن يوسف الذكريات. . واضطربت المشاعر. . ولكنه كتم ذلك كلّه. . وكانوا هم عنه في شغل من تعب السفر، وهمّ الجدب الذي أصابهم. . وافتقد من بينهم شقيقه! أتراهم كادوا لشقيقه كما كادوا له من قبل؟! وأخذ في شيء من الحديث معهم. . يسأل عن بلادهم التي قدموا منها. . وممّن هم. . . ! إذاً ما يزال والدي حيّاً. . وشقيقي بخير يضنّ به على السفر خوفاً من الشيطان أن يلعب برؤوسهم كما لعب من قبل!

ها أنت يا يوسف عزيز مصر. . وها قد جاء «هؤلاء» الذين كادوا لك من سنين شعثاً غبراً يطلبون الرزق! هل هو الانتقام؟ هل تكشف لهم عن نفسك وتقول: انظروا

ماذا فعل الله بي! أردتم قتلي وأراد الله لي الكرامة! أتطوي صفحة الأمس وتعفو عنهم وتقول لهم: أنا أخوكم، فأحضروا أهلكم، وعفا الله عمّا سلف؟!

لا.. لا هذه ولا تلك!!

فماذا إذاً؟!

أمر لهم بما هم مستحقون من الرزق، واستدعى بعض فتيانه وأسرّ لهم أمراً.. ثم استدعى إخوته وقال:

﴿ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين* فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون* قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾.

خرجوا من عند يوسف وبعضهم ينظر في وجه بعض!

قال قائل منهم: ألا تعجبون من أمر هذا العزيز؟ أوفى لنا الكيل ثم يهددنا بمنعه عنا؟! ماله ولأبينا وأخينا؟

قال آخر: لقد أوقع الله حبّنا في قلبه، فهو يريد أن يزيدنا في العطاء، ولا يريد أن يخالف ما سنّ من القوانين، فحضور أخينا سبب في زيادة رزقنا!!

obeikandl.com

قال ثالث: إن في نفسي من هذا العزيز شيئاً! ولكن لا غنى لنا عنه.. فقد أجدبت البلاد من حولنا!

ومضى ركبهم قافلاً إلى بلادهم، ويوسف يتبع خطاهم.. أتراهم يعودون ويقبل معهم أخوه؟

«إن شوقي إليك يا أبتِ أعظم من شوقي لأخي! ولكن لم يحن بعد وقت اللقاء! ولكل أجل كتاب!!»

وصل ركب الإخوة ديارهم.. أقبلوا محمّلين بالرزق.. وتهلّلت الوجوه.. وما أن جلسوا إلى والدهم حتى أفضوا إليه بما كان من شأنهم مع عزيز مصر! وعجب يعقوب عجبهم من الأمر! وظن أن وراء دعواهم كيداً جديداً... وثار في نفسه كيدهم القديم ليوسف...! «ألم تغيّركم السنون؟ لقد صرتم رجالاً.. ألم تكبروا عن نزغات الصغار»؟! ولم يدروا كيف يردّون شكوك والدهم فيهم! وقاموا إلى أحمالهم ينزلونها.. وصاح صائح منهم

- ﴿يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدّت إلينا﴾
- إذاً ليس في الأمر مكيدة! ولكنّ في الأمر سرّاً!!

ويقي في نفس يعقوب من بنيه أشياء!

- ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنني به

إلّا أن يحاط بكم﴾ «ولكن ما شأنك يا عزيز مصر مع أولادي؟ ألم يكفني كيد بعضهم لبعص حتى تكيد لهم أنت؟!» ودبّر يعقوب أمراً يخفى به حالهم على ذلك العزيز، فما هم إلّا أفراد من أقوام تأتيه. . أتراه يميّزهم من بين أولئك الأقوام؟ فماذا لو دخلوا عليه فرادى من أبواب متفرقة. . . لعل الله يدفع بهذا ما خُيّل إليه من الشر. . عن أولاده. . .

ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم! وما إن أطل أولهم عليه حتى بادره بالسؤال عن شقيقه!! «إذاً لم يفلح تدبيرك يا يعقوب! ولم ينسنا هذا العزيز!!» وما إن رأى شقيقه حتى تغيّر وجهه وأشرق بالحنان. . ولكن كتم عاطفته. . وغاب وشقيقه عن أعينهم! وأفضى إليه بسرّه! واستكتمه الأمر. وذكر شقيقه له ما كان بين إخوته وأبيه من ميثاق! قال: لا عليك دعني وتدبيري! ومهما يحدث فالزم الصمت!

حُمّلت الجمال بما قدر الله. . وهمّ الإخوة بالرحيل. . ومعهم شقيق يوسف. . وما هو إلّا أن صاح بهم المنادي! **﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾**.

أي صاعقة نزلت على رؤوسهم؟ وأي مصيبة حلّت بهم؟! ماذا يريد بنا هذا العزيز!! ردّ إلينا البضاعة أول

مرة.. وطلب أخانا.. ثم ها هو يلقي علينا الشبهات والتهم؟!

أقبل الإخوة على المنادي.. يجادلون عن أنفسهم.. وسيقوا إلى يوسف! وصدر الأمر بتفتيش الأمتعة.. وأخّر البحث في وعاء أخيه!!

«ها هُوَ!!» صاح صائح من فتيان العزيز! ودهش الإخوة وهم ينظرون إلى «صواع الملك» يُستخرج من متاع أخيهم! جئنا بك لنزداد كيل بعير فكنت شؤماً علينا!

وأقبلوا على العزيز صفر الوجوه! لقد أحسن إليهم ثم ها هو أخوهم يسرق! ولم يزل ميثاقهم لوالدهم أن يعيدوا أخاهم سالماً معهم يرنّ في آذانهم! أي محنة هذه التي نحن فيها! ماذا تراه فاعلاً بنا هذا العزيز؟!

«إنه السجن لمن سرق!!».

ونظر بعضهم في بعض «وميثاق أبينا..! ماذا نحن قائلون له؟»

ـ قولوا له إن ابنه سرق ونال جزاءه!

ـ ﴿**خذ أحدنا مكانه**﴾.

ـ ﴿**معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده**﴾

ـ تباً له من أخ! إن يسرق صواع الملك فقد سرق أخوه

obeikandl.com

قلب والدنا من قبل!!

وسمع يوسف منهم ما قالوا بحقه وحق أخيه! أينتقم منهم؟ أيشفي غيظه!! أيطلق سراح شقيقه ويوقع العقوبة بهم يتهمهم أنهم كادوا لأخيهم؟! ليس له هذا!! فليبق أخوه... ولينطلقوا هم إلى وجهتهم. وتجاهل يوسف مقالتهم.. وقال كاتماً في نفسه:

﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾

ألم تغيّركم السنون؟ أما زال في نفوسكم من يوسف شيء على كيدكم له؟!

لا بدّ لكم من محنة تطهّر أنفسكم..!

كانوا كمن يقف على جمر! يتناوبون مع يوسف الرجاء.. يتذللون له.. يبذلون ما يستطيعون ومالا يستطيعون! يريدون أن تبقى صحيفتهم مع أبيهم بيضاء!

ولمّا لم يجدوا لديه أذناً صاغية.. استسلموا.. ومضى يوسف بأخيه! وانتحوا جانباً يشكو بعضهم إلى بعض! وتذكروا ما أثاره أحدهم من الشكوك حول العزيز أول مرّة!!

وذاع بين القافلة خبرهم.. واستشهدوا من كان

obeikandi.com

معهم على ما حدث ليضمنوا تصديق والدهم! وتخلّف كبيرهم في مصر ليبقى قريباً من أخيه حتى يعود إخوته من عند أبيهم! وحتى تنتهي مدة العقوبة!!

سمع يعقوب القصة.. وحضر الشهود بين يديه! ولكن بقي في نفسه منهم أشياء! وثارت في نفس يعقوب الشجون! وفاض حنان الأبوة! ونظر فإذا أحب ولديه إليه قد ضاعا من يديه! يوسف الذي لم يمت! إنه على يقين من ذلك! ولكنه الشوق إليه! وهذا الولد الحبيب الذي كاد له إخوته من جديد! ولفّقوا له قصة السرقة!!

مضى يعقوب عن أولاده يمشي قريباً من الأخبية.. والعواطف في نفسه تثور.. والذكريات تدور.. والعينان تدمعان! وقسوة الإخوة مع أخويهم تثير في نفسه الشجون!

وسمع الأولاد أباهم يناديهم! أقبلوا عليه! فإذا هو قد فقد بصره! أخذوا بيده.. ومضى معهم ودموعه لا تكفّ.. ولسانه يردد:

- ﴿**يا أسفا على يوسف..**﴾ ﴿**يا أسفا على يوسف..**﴾

- أيوسف في هذا الحين؟ أين أنت من يوسف!! نحن الآن في شأن أخيه!!

لقد كان يعقوب على ثقة من أنه سيلتقي بيوسف قبل أن يموت! هكذا وعده ربه. . وهكذا أخبر ولده يوم رأى رؤياه! لن يموت حتى يرى إتمام النعمة على آل يعقوب! ولكنها النفس والشوق والشجن!

إن يوسف قريب. . هكذا يحدثه قلبه، إن بينكم وبين يوسف خطوات! ﴿**اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون**﴾.

ونظر بعضهم إلى بعض! لعل الشيخ يعلم مالا نعلم! فلنمض إلى مصر لنرى ماذا فعل الله بأخوينا؟!

أقبل عليهم أخوهم الكبير. . فقصوا عليه ما كان من شأن يعقوب، وما طلبه منهم أن يبحثوا عن يوسف، ويسعوا إلى مكان أخيهم السجين!!

ودخلوا على يوسف وقد بلغ بهم الجهد أقصاه، . وشكوا إليه حالهم وحال أبيهم وما أصاب عينيه حزناً على فراق أخيهم، وما تجدد له من حزن على يوسف!

ونظر يوسف في حالهم! فرقّ لهم. . . ورقّ قلبه لأبيه الذي يلغت لديه المحنة أقصاها. . وقد آن لها أن تنتهي! وأمر بأخيه فجيء به فإذا هو مكرّم غير سجين،

تبدو عليه علامات النعمة! نظر بعضهم في بعض وهم يعانقونه ويكشفون له عما هم في من ضيق ويعجبون!! نظر يوسف في وجوههم وقال: ألا تدققون النظر في وجهي؟! ألا تعرفون شبيهاً بي؟! نظروا في وجهه نظر المتعرّف! أزاحوا عن أعينهم هيبة العزيز وجلال الملك! أكنّا عُمياً فيما سبق!! أأنت هو؟

- ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾

- ﴿أإنك لأنت يوسف؟!﴾

- ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد مَنّ الله علينا﴾

- ﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾

- ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾

وأقبلوا عليه وهم بين حالين.. الفرح به أن نجا من السوء.. وأن جعله الله عزيزاً في مصر! وما سيكون لذلك من شأن مع والدهم! ثم الحياء من أنفسهم ومنه، وهم يستذكرون ما مضى من فعلتهم معه!

ومضى الركب يسابق بعضهم بعضاً.. كل يريد أن يفوز بالبشارة فيحظى بمنزلة في قلب والده..

وأحسّ من حول يعقوب من قومه أنّ في الشيخ

انتعاشاً! فأقبلوا عليه مستبشرين أن عاد له بعض قوته، سائلين عن سرّ ذلك:

ـ **﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون﴾**

ـ **﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾**!!

ووقعت صيحة في ديار يعقوب.. فقد لاح من بعيد فارس يغذّ السير ويلوحّ بشيء في يده.. وخرج القوم مستطلعين.. فلم يلتفت إليهم.. ومضى إلى حيث يعقوب فألقى على وجهه قميصاً في يده.. وأقبل القوم فإذا يعقوب من المبصرين!

ـ إنه قميص يوسف! عزيز مصر! يوسف عزيز مصر!!

ونظر القوم في البشير.. أيعجبون من قوله.. أم يعجبون من حال الشيخ الذي ارتد إليه بصره إذ وضع عليه القميص..؟

قال يعقوب وهو ينظر إليهم.. ويلهج لسانه بحمد ربه:

ـ **﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون﴾**؟!

ونظر القوم بعضهم إلى بعض.. يلومون أنفسهم على ما أساؤوا إلى نبيهم.. حين قالوا: **﴿إنك لفي**

obeikandi.com

ضلالك القديم﴾!! ظنوا به خرفاً!! ولكنه كان من العالمين!

ووصل ركب الإخوة.. وهم يدارون وجوههم عن أبيهم! لقد وصل البشير بنبأ الفرح.. وها هم يقرؤون في وجه أبيهم رحلة يوسف من الجب إلى القصر..، فأقبلوا عليه نادمين.

- **﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾**.

لم يكن يعقوب في عجلة من استغفاره لهم.. فقلبه قد سبقه إلى هناك.. إلى يوسف الحبيب...!

ودخل يعقوب وبنوه على يوسف!

وكان ما كان بين الولد ووالديه بعد غياب السنين...

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي..﴾.

وشُغل القوم بما هم فيه من فرح واجتماع شمل..

obeikandl.com

وانسل يوسف من بينهم . . وقلبه معلق بهم . . ورفع يديه إلى ربه مقراً بنعمته وفضله . . واستغرق في الدعاء . . .

ـ ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ .

obeikandl.com

obeikandl.com

صدر للمؤلف

١ـ القدس تصرخ (شعر)، دار البيان، الكويت، ١٩٦٩م.

٢ـ قصائد للفجر الآتي (شعر)، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م.

٣ـ مشاهد من عالم القهر (شعر)، دار البشير، عمان، ١٩٨٣م.

٤ـ أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م.

٥ـ الغزو المغولي أحداث وأشعار، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.

٦ـ الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.

٧ـ خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة، جدة، ١٩٨٨م

obeikandl.com

٨ـ من قصص النبي ﷺ، دار البشير، عمان، ١٩٩٢م .

٩ـ شخصيات قرآنية ، دار البشير، عمان، ١٩٩٢م .

obeikandl.com

محتويات الكتاب

ـ مقدمة ٥
ـ إبراهيم وأبوه ٧
ـ لقمان وابنه ١٣
ـ ذو القرنين ٢٠
ـ أم موسى ٢٦
ـ مريم بنت عمران ٣٢
ـ امرأة فرعون ٣٨
ـ مؤمن آل فرعون ٤٣
ـ يوسف (١) ٥٣
ـ يوسف وامرأة العزيز ٦٢
ـ يوسف السجين (٢) ٧١
ـ يوسف العزيز (٣) ٧٩
ـ صدر للمؤلف ٩٣
ـ محتويات الكتاب ٩٥

obeikandi.com